بائع اللبن

يتردد بائع اللبن عمّ صابر كلّ يوم على منزل عبد الرسول التاجر الثري المعروف، ليبيعه حاجته من اللبن.

عمّ صابر رجل مسن استجاب لشيخوخته مبكرًا فلمّا تمكّنت منه، ولم يقو على الصعود إلى المنازل، جاء زبائنه يومًا بعد يوم إلى منزله، وبسبب مرض مفاجئ شديد انقطع عن العمل، ولم يكن له في ذلك الوقت دخل آخر يواجه به الحياة، فأوصى ولده الأكبر سعد أن يتولّى توزيع اللبن على زبائنه إلى جانب دراسته الجامعية.

سعد شاب جامعي اقترب وقت تخرّجه في الجامعة، وهو شاب مثقف، مهذب، جميل الطلعة، مهندم الثياب، على خلق كريم.

لم يتردد سعد في طاعة والده، وخرج بقسط من اللبن ليتعرف على زبائنه، ثمّ عاد إلى منزل عبد الرسول، وهناك فوجئ سعد بأن الفتاة الجميلة؛ التي فتحت الباب؛ لتأخذ منه اللبن، هي زميلته بالكلية.

كان سعد حريصًا على معرفة الناس ومعادنهم، يجيد التمعّن في الوجوه؛ التي يتعامل معها، لا سيما ضعاف النفوس منهم، ليتقي شرّ مَن تسوّل له نفسه التقليل من شأن من يمارس مثل هذا العمل!

أمام زميلته تاهت عيناه، واقشعرّ بدنه من المفاجأة، واهتز قلبه لجمالها، لكنّه انصرف وفي قلبه حسرة، تصاحبها ثورة عنيفة في داخله؛ تراها... عرفته؟ أم تنكّرت له؟ أم رثت لحاله؟

إن صمت عينيها الخضراوين، اللتين التصقت صورتهما في ذهنه، جعله يفكر فيها طويلًا، ولا يستطيع أن ينساها، وفي اليوم التالي، وفي نفس الميعاد ذهب سعد إلى منزل عبد الرسول ليجد سعاد في انتظاره لأخذ اللبن، ولتقول له، وهي تقلّب صفحات ذاكرتها:

- وجهك ليس بغريب عليّ، ومنذ الأمس وأنا أفكر.. أين رأيتك من قبل؟ فلم أستطع التذكّر. ابتسم سعد، وهو يقول:

- أنا زميلك في الكلية

قالت وهي تطوي صفحات ذاكرتها بعد أن تذكرته:

- كيف حال والدك؟ فأجاب:
- ما زال طريح الفراش، فبدا عليها التأثر وهي تقول:
- شفاه الله وعافاه.. ومرحبًا بك أيّها الهمام.

مدّت سعاد يدها إليه في إعجاب شديد تحييه على صموده ووفائه لأهله، فأعجب بتواضعها، وحبّها للبسطاء، وهو ما ظهر في سمة الفرح المرسومة على وجنتيها وفي ترحيبها به.

أحس سعد بخفقان قلبها مع دقات قلبه واحدة بواحدة.

إنّ قلبها الطيب، ورقة إحساسها جعلاه يرى فيها الجمال أكثر ممّا يجب، جمال خلق كريم، وجمال وجهها السمح الحسن.

وبدأت شرارة الحب، التي غزت قلبيهما، وتعلّق كلٌّ منهما بالآخر، وحرصا على أن يلتقيا في كلّ يوم مرتيْن، مرة في الصباح في الجامعة، ومرة في المساء عندما يحضر لبيع اللبن.

يلتقيان في جوٍ من البهجة والهيام، يتخلّله السرور والأحلام، فيودان ألّا يفترقا، وألّا يكون هناك انصراف، ولأنّ الطيور على أشكالها تقع اجتمع العاشقان دون سابق ميعاد، والتقى القلبان المتواضعان؛ ليعيشا الحبّ الصادق الأمين.

كان سعد الأوّل على دفعته ممّا جعل كثيرًا من الزميلات يرغبن في التعرف عليه، إلّا أنّ حبّه كان صادقًا، ولا مكان في قلبه إلّا لواحدة هي سعاد.

الحب الصادق لا يعرف التعالي، وهو كفيل بتطهير النفوس، وتشكيل القلوب تشكيلا خاضعًا لقوانين الحبّ، التي لا تفرّق بين غني وفقير، بل ترقي الأحاسيس، وتقوي المشاعر ضد الحقد والتكبّر، فليعمّ التسامح، وتفرض التضحية، والعلو إلى أسمى الدرجات.

استمر العاشقان يتواعدان بالزواج وهما يهيمان في سماء حبٍّ طاهر، يفرق الأوهام، ويرتّب الأحلام.

ثمّ تخرّج سعد، وكان الأوّل على دفعته، فعيّن معيدًا بالكلية، وجاء اليوم الموعود، الذي طالما تمناه لتحقيق أمنيته والتقاط أنفاسه.

وفي الوقت المنتظر، حينما ظنّ سعد؛ أنّه يستطيع أن ينشد نشيد قلبه، وأشعار حبّه، ويتمّ الزواج في سعادة ووئام.. ذهب إلى بيت سعاد، بعد أن وافق أبوها على مضض التقى به، بعد أن أخبرته بمن يكون. استقبله عابسًا:

- أنت..! أنت بائع اللبن؟